

دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي

مرضية آباد*

رسول بلاوي**

الملخص

يمثل اللون ملمحاً جمالياً في الشعر ويُعدُّ عنصراً مهماً من عناصر البناء الفني، بما يحمل من دلالات ذات علاقة مباشرة بالرؤية الفنية، ففي معظم الأحيان لا يرد اللون فيما وصف له، بل يكشف عن إحساس الشاعر؛ فهو مبعث للحبوية والنشاط والراحة والأطمئنان، ورمز للمشاعر المختلفة من حزن وسرور. اللون من أهم ظواهر الطبيعة وأجملها، ومن أهم العناصر التي تشكّل الصورة الفنية، لما يشتمل عليه من الدلالات الفنية والنفسيّة والاجتماعية والرمزية. لذلك ينبغي دراسة اللون في الشعر من خلال ربطه بسياق النص الشعري، فالسياق الشعري هو الذي يحدد وظيفته وفاعليته.

يتناول هذا البحث دراسة الألوان ودلالاتها في شعر الشاعر العراقي يحيى السماوي دراسة دلالية أسلوبية، ويهدف إلى إحصاء الظواهر اللونية في شعره وإبرازها؛ وقد اعتمد البحث منهج التحليل والوصف والإحصاء في تناول الألفاظ اللونية. فالسماوي من الشعراء المعاصرين الذين قاموا بتوظيف الألوان الرمزية على مستوى وسيع. وتشير نتائج هذا البحث إلى أنّ الشاعر اعتمد في استخدامه للون على ألوان بعينها، وهي على الترتيب حسب قوة ظهورها لديه: الأخضر والأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأزرق.

الكلمات الدلالية: الشعر العربي الحديث، يحيى السماوي، الألوان، الرمز.

*. جامعة فردوسي، مشهد، إيران. (أستاذة مساعدة).

** جامعة فردوسي، مشهد، إيران. (خريج مرحلة الدكتوراه). R.Balawi@yahoo.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندي

تاريخ القبول: ١٣٩١/١٠/٢٠هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩١/٨/٣هـ. ش

المقدمة

اللون من أهم وأجمل ظواهر الطبيعة ومن أهم العناصر التي تشكّل الصورة الأدبية لما يشتمل عليه من شتى الدلالات الفنية، والدينية، والنفسية، والاجتماعية، والرمزية والأسطورية. ويبرز اللون كعنصر من أهم عناصر الجمال التي نهتم بها في حياتنا، وعلى الرغم من تعدد الألوان المحيطة بنا التي تزخر بها الحياة من ألوان طبيعية متمثلة في الأزهار والنباتات والحيوانات والسماء والأرض والبحار إلا أن الإنسان لم يقنع بهذه الألوان وأضاف إليها من فنه وعلمه الكثير من الألوان.

والأديب يستثمر الألوان لخلق التوازن والتناسب والوحدة والانسجام التي هي من أهم مباني علم الجمال. بحيث يعتقد بعض كبار الشعراء أنه لا بد من تدمير الواقع الخارجى لخلق واقعية جديدة، ولحصول هذا الغرض لا بد من الالتجاء إلى الألوان؛ إذن التدقيق في الآثار الأدبية يرشدنا إلى أن استخدام اللون في هذه الآثار ليس صدفة، وليس لتنميق الكلام فحسب، بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيوية والبلاغية والتعبيرية للنص الأدبي.

يسعين الشاعر بالألوان، ليعبر عن عمقه العاطفي وجوهره الفكري، وكأنه رسام عارف بخفايا الألوان ودلالاتها وعلاقتها بالإنسان، بل إنّ «الصور والألوان تنطلق من جوانية الشاعر، وخبرته البصرية، ووعيه التاريخي، وحفرياتة الأسطورية، وتجربته النقدية، وتجواله ومشاهداته التشكيلية، وتنوع اهتماماته بين الفنون، بحيث تصبح الصورة ليست مجرد أداة للمعرفة فحسب، وإنما أداة للحرية أيضا.» (نشوان، ٢٠٠٤م:

(١٢٦)

لكل لون معنى نفسى يتكون نتيجة لتأثيره الفيزيولوجى على الإنسان. كما يقال إن الوقت يمضى بسرعة تحت أشعة خضراء، ويمضى ببطء تحت أشعة حمراء، فاللون الأخضر لون هادئ، ومريح للأعصاب مما يشعر بمرور الوقت ضعيفا، وأما اللون الأحمر فمشهور بأنه لون مثير ومهيج ومقلق، ويؤدى إلى الشعور بالملل مما يجعل المرء يشعر بأن الوقت لايمضى.

فإن وجود لون واحد في قصيدة شعرية بإمكانه أن يُسفر عن عدة أغراض، فهو

في قصيدة ما قديش كل محورا رمزيا يدور حوله النص، وهو في قصيدة ثانية قديكون أسلوبا فنيا من الأساليب الكثيرة في النص، وهو في قصيدة ثالثة يفتقد الطاقات الرمزية والتعبيرية كلها ليحاكي اللون الموجود في الواقع ذاته؛ فوصف العشب بأنه أخضر في قصيدة ما لا يضيف رؤيا جديدة إلى ذلك العشب كونه أخضر حقا في الواقع، فيتطابق هنا -من وجهة نظر لسانية- الدال والمدلول في الشعر والطبيعة معا.

إنّ ولوج اللون في الشعر الحديث كان ولوجا معقدا، حيث ابتعد اللون عن محوره البصرى ليلامس المنظومة الصوتية التي تحكم الشعر ومختلف اتجاهات الأدب الأخرى، الأمر الذي جعل من هذا التعقيد مسوغا للبحث في عالم اللون المنطوى تحت عالم الشعر، أضف إلى ذلك أن البحوث والدراسات التي عالجت اللون في سياق القصيدة العربية الحديثة كانت نادرة غير متكاملة، تجتريء محورا ما لتبنى حوله ما ترمى إليه، فأضعفت تلك البحوث حقيقة اللون بدلالاته المتعددة، ومرجعياته الفكرية والاجتماعية والثقافية والنفسية. وذلك التعقيد يتخذ مستويات متفاوتة في النص الشعري الحديث، إذ يبدو اللون الواحد عند شاعر ما مختلف الدلالات من قصيدة إلى أخرى، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، ويعود الأمر إلى تحوّل في الموقف الفكري الذي أنجزته الظروف المحيطة، كما أن بعض الألوان تكتسب خصوصية اجتماعية دينية في مرحلة زمنية معينة، أضف إلى ذلك أن بعض الألوان تتخذ طابعا إشاريا في مرحلة ما، وتتخذ طابعا رمزيا في مرحلة أخرى، وربما تتخذ منحي العلامة، وإلخ، كل ذلك يستدعى من المرء الوقوف على دقائق الأمور التي تحيط باللون في سياق معين، وفي مرحلة زمنية معينة.

ويحيى السماوى بما امتلك من خيال وشاعرية أدرك ما للألوان والخطوط الحركية من قيمة إيجابية وتأصيلية في بناء الصورة الشعرية، وقد اعتمد في استخدامه للون على ألوان بعينها، وهي على الترتيب حسب قوة ظهورها لديه: الأخضر والأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأزرق.

ويمكننا القول، وعبر استقراء فني لشعر السماوى، إنه من أكثر الشعراء العرب المعاصرين ولعا باستثمار الطاقات الفنية -التشكيلية- للون في شعره، بما يتفق وأطروحاته الشعرية، إذ يسعى إلى جعل قصيدته ملوّنة، لا بل يجعل من نفسه شاعرا ملوّنا يرتدى

الألوان كلها، ويظهر في كل مناسبة بلون مختلف.

خلفية البحث

الدراسات التي تناولت تجربة الشاعر يحيى السماوي نحصّ منها بالذكر كتاب حسين سرمك حسن، الموسوم بـ«إشكالية الحداثة في الشعر السياسي، يحيى السماوي أنموذجا»، وكتاب محمد جاهين بدوي الموسوم بـ«العشق والاعتراب في شعر يحيى السماوي»، وكتاب فاطمة القرني الموسوم بـ«الشعر العراقي في المنفى، السماوي نموذجا»، وكتاب عصام شرّح الموسومين بـ«آفاق الشعرية، دراسة في شعر يحيى السماوي»، و«موحيات الخطاب الشعري، دراسة في شعر يحيى السماوي».

ومن الدراسات التي تناولت الألوان في الشعر منها كتاب ماجد فارس قاروط الموسوم بـ"تجليات اللون في الشعر العربي الحديث"؛ ورسالة أحمد عبدالله محمد حمدان الموسومة بـ"دلالات الألوان في شعر نزار قباني" في جامعة النجاح الوطنية، ودراسة حيدر محمد جمال سيد أحمد تحت عنوان "إيقاع الألوان في شعر عز الدين المناصرة" المنشورة في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ومقال مشترك لمحمد مهدي سمّي ونرجس طهماسبى نكهدارى تحت عنوان "الألوان الرمزية في أشعار صلاح عبدالصبور" المنشور في مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها.

اللون الأخضر

اللون الأخضر هو لون الحياة والحركة والسرور؛ لأنه يهدئ النفس ويسرها، وهو تعبير عن الحياة والخصب والنماء والأمل والسلام والأمان والتفاؤل، وهو لون الربيع والطبيعة الحية والحداثة والأشجار والأغصان والبراعم.

يعد اللون الأخضر من أكثر الألوان وضوحا واستقرارا في دلالاته، وهو من الألوان المحببة ذات الإيحاءات المبهمة «لارتباطه بأشياء مهمة في الطبيعة أصلا، كالنبات والأحجار الكريمة، ثم جاءت المعتقدات الدينية، وغدّت هذا الارتباط بالخصب والشباب وهما مبعث فرحة الإنسان.» (عمر، ١٩٩٧م: ٢١٠)

يعتبر الأخضر في الفكر الديني رمزا للخير والإيمان، وإنه أكثر شيوعا في الروايات

العربية والإسلامية وقباب المساجد وأستار الكعبة وعمائم رجال الدين. والشاعر يحيى السماوى استخدم هذا اللون بكثرة في شعره لدلالات شتى؛ فاللون الأخضر من الألوان المحببة والمقدسة عنده؛ لأن الأخضر يذكر الشاعر بمظلومية أهل البيت (ع)، فاللون الأخضر هو شعار كل الذين يرجع نسبهم إلى الإمامين المعصومين الحسن والحسين عليهما السلام. يقول الشاعر في هذا السياق:

رأيتُ عصفورين مذبحين

تحت شرفة خضراء كالعشبِ

يسيلان ندى... وضوءا... (السماوى، ٢٠٠٦م: ٧٩)

ففى هذا المقبوس الشرفة الخضراء ترمز للأفق الأخضر أو الربيع، وترمز أيضا للحلم الجميل بالحياة الرغيدة. فكما أسلفنا إن اللون الأخضر فى الذاكرة الشعبية العراقية هو لون «السادة» المنحدرين فى نسبهم من أهل البيت المعصومين، وهذه الرمزية تركت أثرا بالغا على الشاعر بالنسبة لاستدعائه للون الأخضر فى دلالاته المختلفة.

ومن دلالات الأخضر على الخصوبة والحياة قول الشاعر:

لو كنتُ ربيعا

لما تركتُ صحراءَ

الآ وأقمتُ فيها

مهرجان خضرقى (السماوى، ٢٠١٠م: ١٢٧)

وفى المقطع التالى يقول:

يحدث أن أظهر الحقول من كل الجراد البشرى

فى بساتين الفراتين

وفى "الجليل" ... "يافا" ... ورياض "الناصره" ...

وأسرج الخضره فى القفار

حتى تستحيل جنة أرضية

ضاحكة السلال (السماوى، ٢٠٠٦م: ٥٨-٥٩)

فهو يريد أن "يسرج" الخضره فى القفار حتى تستحيل جنة أرضية "ضاحكة

السَّلالَ، ولا يخفى ما في كلمة "يسرج" في هذا السياق من احتمالها لونيْن من الدلالة؛ فهي تحتمل أن تكون من "الإسراج" أى وضع السرج على صهوة الخُضرة؛ فتغدو فرسا أخضر ذا ينع ينطلق في القفار الصُّفر؛ فتصبح ربوعا خضراء ذات بهجة، كما يحتمل أن يكون الإسراج من السراج: المصباح؛ فيكون المعنى أن الخُضرة تغدو مصباحا ينير الصحارى والقفار بأضوائه الخُضراء، رمز الخُضْب والحياة والتجدد والنماء. (بدوى، ٢٠١٠م: ١٠٨-١٠٩)

وقد يكون الأخضر لون الحياة والقوة ونضارة الشباب:

ولك اخضارارى ما حبيتُ

ولى جفافك يا حبيبي... (الساوى، ٢٠٠٣م: ١٤٧)

هنا يخاطب الوطن ويفدّيه بجياته وشبابه، قائلاً له: لك كلُّ غراسى وحصاد ربيع عمري، وأما أنا فسأقع منك بكل قليل وسأرتوى حتى بالعطش.

وفي المقتبس التالى أيضا يدلّ الأخضر على النضارة وحيوية الشباب:

أدركُ أنّ ليلتي قاربتِ الهزيعاً

وأنّ سنديانتي لما تُعدّ ضاحكةً الورد...

ولا ربابتى تُتملُّ فى لحونها الجموعاً...

أدركُ أنّ نُجمكِ الصبوح

لازال علي عادته سطوعاً...

وأنّ من حولك ألف عاشق

يحملُ لو خرَّ علي يديك - من صباية - صريعاً

لكنّ قلبي لم يزل طفلاً

وبستاني يفيضُ خضرة (الساوى، ٢٠٠٥م: ١٥٨-١٥٩)

هذا الإحساس اليائس يأتى دلالة علي إحساس الشاعر بالعدم وتصحر الأشياء وفقدانها بريقها من حوله؛ فالربابة لم تعد كما كانت تبث لحونها العذبة فى نفس المرء؛ والسنديانة التى تذكره بوطنه أصبحت كظيمة فقدت بريق ضحكتها؛ ولم يعد لها هذا البهاء الساطع؛ لكن الشاعر رغم ذلك كله لا يزال يفيض خضرة وأملاً وثباتاً وعشقا.

ويستخدم السماوى الأخضر لونا للنضوج، فيقول مخاطبا ابنته الشيماء:

يا ابنتى التى غدت لى أمّا

لن أنصحك...

فأنا متيقن أنّ عشبَ رأسك

أكثر خضرة من عشب رأسى (السماوى، ٢٠١٠م: ٨٢)

لقد أعتبر الشاعر ابنته «الشيماء» أمّا له لنضوجها فلا يجد حاجة لتقديم النصيحة

لها.

أمّا إذا اتّصلَ هذا اللون بالعيون، فيدلّ على السلام والبراءة، ففي المقطع التالى

يصف عيون والدته:

خضرةٌ عينيها

أغوت الفراشات بالإقامة

فى بيتنا الطينى! (المصدر السابق: ٦١)

وفى الحقيقة إنّ والده الشاعر رحمها الله كانت لها عينان خضراوان، كما أن الشاعر

أيضا أخضر العينين؛ فنراه يقول فى ما يلى:

إنّ عاشقتى تحبُّ كما أحبّ

وتشتهى مثلى رغيّف أمان

وطفلا أخضر العينين

ضحكته دعاءُ أذان (السماوى، ١٩٩٧م: ٤١)

كانت حبيبته أى زوجته تتمنى أن يرزقها الله منه طفلا يحمل ملامح يحيى.

ومن دلالات اللون الأخضر، السرور والبهجة:

كان لى فى سالف العصر وطنّ

ضاحك الأنهار

لايعرف غير الفرح الأخضر فى حقل الزمنّ (المصدر السابق: ٧٣)

فالعراق قبل مجىء صدام حسين وحزب البعث كان يعيش الفرح الجميل، وكان

الحياة كانت ربيعا قبل حلول خريف البعث فى العراق.

وأبضا يكون لون الربيع والطبيعة الحية:

أنا لأعرفنى...

أين أقيم الآن؟

لا عنوان لى

كيف اهتديت؟

فتعرفت إلى جفنى وسفح

يحتفى فى حضنه الأخضر بيت؟ (الساوى، ٢٠١٠م: ٨٨)

ففى المقطع إشارة إلى حقيقة جغرافية، وهى أن بيته فى أدبلايد يقع فعلا فى حضن

سفح جبلى شديد الخضرة محاط بالغابات وقريب من البحر.

و فى مقطع آخر يقول الشاعر:

نامى على هُدبى

لتنهض الخضرة فى العشب

وتمطر الأشعار

من فمك العذب (الساوى، ١٤١٥ق: ١١٣)

فى هذا المقطع يخاطب الشاعر زوجته ومدينة السماوة معا: لاتغادرى عينيّ، لأن

وجودك أمام عينيّ يجعل صحراء وجودى كالحقول المعشبة حتى لو كان عشب هذه

الحقول يابسا، وبمعنى آخر إن وجود الحبيب قربه يقلل من ثقل صخور الغربة.

تقوم أصوات كلمة «الأخضر» ولا سيما صوتى «الحناء والضاد» المتعاقبين زحما

شعريا وكثافة إيقاعية يندر وجودها فى اشتباك صوتين آخرين، متناسبة فى ذلك مع

عمق المستوى الدلالى للون فى درجاته المختلفة فى النص. (عبيد، ٢٠٠٥م: ١١٣)

إن هذا التكرار المهيمن للون الأخضر يسهم فى إبراز دلالة عمق الحياة وسعتها فى

الحدث الشعرى. فتكرار اللون هنا يتجاوز الدلالة الوصفية العامة له، ليتحول إلى حياة

كاملة مفعمة بالأمل دافقة بالعطاء ومسلحة بقدرة كبيرة على استشراف المستقبل، إن

إيقاع اللون هنا هو إيقاع الحياة بكامل حركتها وديناميتها وطفولتها.

اللون الأبيض

للأبيض تقاليد رمزية عالية التداول في صنع الدلالة وترميزها في أفق الاستخدام المعنوى والسميائي، فهو في السياق الدلالي العام «رمز الطهارة والنور والغبطة والفرح والنصر والسلام» (همام، ١٩٣٠م: ٧)؛ كما أنه وفي السياق ذاته والرؤية ذاتها «رمز للصفاء، ونقاء السريرة، والهدوء والأمل، وحبّ الخير والبساطة في الحياة وعدم التقيّد والتكلف». (عبو، ١٩٨٢م: ١٣٧)

فاللون الأبيض بكلّ ما يحمله من معاني الإيجاب الظاهرة والرمزية التي أشرنا إليها، ينحرف أحيانا في بيئات وأمكنة وأحياز وأزمنة وأوقات معينة إلى معان تناقض تلك المعاني التقليدية، وتقف على الضدّ منها تقريبا؛ فهو مثلا رمز للحزن لدى بعض الأمم ومنها أمة الصين، على النقيض من دلالاته على الفرح والبهجة والسعادة عند الكثير من الأمم الأخرى. (جواد، ٢٠٠٩م: ٤٤)

اهتم العرب قديما بتمييز الأبيض بألوان خاصة، تحدد صفاته ودرجاته، فقد رتب الثعالبي درجات الأبيض على النحو التالي: «أبيض، ثم يقق، ثم لهق، ثم واضح، ثم ناصع، ثم هجان، وخالص»... (الثعالبي، ٢٠٠١م: ١١٢)

وفي العصور القديمة كان اللون الأبيض مقدسا ومقصورا على آلهة الرومان، وكان يضحى له بحيوانات بيضاء، وعند المسيحيين عادة ما يرمز للمسيح بثوب أبيض دليلا على الصفاء والنقاء والخلو من الدنس، وفي مصر القديمة كان الفرعون يرتدى تاجا أبيض ليرمز لسيطرته على مصر العليا مما يشير إلى أنّها كانت تعيش بسلام وطمأنينة... (عمر، ١٩٩٧م: ١٦٣)

وقد ورد هذا اللون في شعر السماوى دالا على معان مختلفة أهمّها النقاء:

ورسالة بيضاء من عتّب

مُبِللة بدمع ندامة القلب الموزّع

بين مفتاح الغدّ الماضى

وباب المستحيل (السماوى، ٢٠١٠م: ١٩٥-١٩٦)

أيضا في المقتبس التالى:

سينفضُ التاريخ من صفحاته البيضاء

الساسة الذين ملأوا:

بطوننا بالقررة...

وآذاننا بالخطب...

وأيامنا بالوعود... (السماوى، ٢٠٠٨م: ١٠٠)

كما استخدم السماوى اللون الأبيض للدلالة على الطهارة:

كنتُ أرجو أن أرى شرفها

يُشبهه فى بياضه

فستان عُرس غادقى الزهراء (السماوى، ٢٠١٠م: ١١٩-١٢٠)

وفى ما يلى الأبيض لون الأمل:

يا أبا ذرّ الغفارى ألا قمتَ بنا؟

إفتنا ما عاد خيط أبيض بين حجاب الليل

والصبح... (السماوى، ٢٠٠٨م: ٤٤)

وأيضاً يكون اللون الأبيض لون البراءة:

ستون -أو كادت- ولم أعرف بها

للغدر خطوا والرياء مقولا

عفّ السريرة والسرير وبردق

بيضاء ردنا حاسرا وذيو لا (السماوى، ٢٠١٠م: ٨٢)

وقول الشاعر مخاطبا ابنه على :

أليس حماقة أن تُحبَّ العراقَ مثلى؟

وأن يكون قلبك

أكثر بياضا من ريش «حمامة بيكاسو»

فى زمن

أكثر سوادا من دخان قنابل البنتاغون؟ (السماوى، ٢٠١٠م: ٨٣)

ولكن عندما يتصل هذا اللون بالعدو المحتل يتحوّل رمزا للقتل والدمار. ففى قصيدته

التالية عن البيت الأبيض يعلن أن:

ما يلوح في الأفق

ليس بيتا أبيض

إنه: جبل

من أكفان ضحاياه (المصدر نفسه: ١٣٣)

أى أن البياض المغدور والمتراكم يمكن أن يكون سوادا وبلا رحمة. وفي مقطع آخر

يقول الشاعر:

ثمة بياض

أكثر عُتمة من قعر بئر

في ليل

يتيم القمر والنجوم

بياض الكفن والبيت الأبيض مثلا. (السماوى، ٢٠٠٨م: ٤٧)

هنا، يعتمد الشاعر إيقاع الحكم بوميض السخرية والفكاهة من خلال تفسير الألوان

وفلسفته في تأويلها، وقلب مداليلها أحيانا، فاللون قدينطوى علي منظور مغاير لمدلوله،

فكما أن اللون الأبيض يدل مثلا علي السلام والطهر والبراءة، فقد يدل أحيانا علي

مدلول مغاير لمدلوله، إذ يدل -في بعض الأحيان- علي الجريمة والقتل والظلم كالبيت

الأبيض مثلا، أو بياض الكفن. (شريح، ٢٠١١م: موقع المثقف)

وقد يتحوّل اللون الأبيض إلى شيء مزعج حينما يتعلّق الأمر بشعر الرأس:

البحرُ في عينيكِ يا حلوقِ

و الزبدُ الأبيضُ في مفرقي (السماوى، ١٤١٥ق: ١٥٩)

هذه الدلالة التي اتّفق الشعراء العرب من سالف العصور علي وصفها بالمزعجة لأنّها

إيدان بأفول زمن الشباب وميلاد زمن المشيب الذي يمهدّ لنهاية وشيكة ...

ومن الدلالات السلبية التي استخدمها الشاعر للون الأبيض هي الدلالة على الجوع

والقحط، كما في المقبوس التالي:

موائدنا تخلو من الدسم...

قدورنا بيضاء ...

وأعذاق نخيلنا

لم تُعدّ تسيل عَسَلًا... (السماوى، ٢٠١٠م: ١٧٤)

اللون الأسود

اللون الأسود هو اللون الأكثر هيمنة على حياة البشر، و الأكثر تدخلاً في مصائرهم منذ أقدم الأزمنة وفي معظم الثقافات على مرّ العصور أيضاً، والأكثر تشكيلاً لتقاليدهم وحساسية لتعاملهم مع الأشياء في الحياة، والأوسع استجابة لخوفهم وأحزانهم ومعاناتهم والتفافهم حول ذواتهم وتشبّثهم بالمكان (جواد، ٢٠٠٩م: ٤٤)

فهو كثيراً ما يرمز -عادة وعموماً- «إلى الخوف من المجهول والميل إلى التكتّم، ولكونه سلبي اللون يدل على العدمية والفناء» (عمر، ١٩٩٧م: ١٨٦) ويرمز أيضاً إلى «الحكمة والرزانة، ولذلك يتّخذة كثير من رجال الدين شعاراً لهم.» (ظاهر، ١٩٧٩م: ٥٥)

ويدل على المستوى الدبلوماسي «على قيمة صاحبه ومركزه الاجتماعي والرسمي، ولذا يُلبس في المآتم والاحتفالات الرسمية» (عبو، ١٩٨٢م: ١٣٧) دالاً على الوقار والعظمة وعلوّ المكانة. (العمرى، ١٩٨٩م: ١٩)

دلّت على اللون الأسود في اللغة ألفاظ كثيرة في الأغلب تجمع على أنه ضد الجمال، وكل ما هو سيء، ووصفوا تدرجه، «أسود، أسحم، ثم جون، وفاحم، وحالك، وحانك، ثم أنه حلوك، وسحوك، ودجوجي، ثم غريب، وغدافي، وخُداری» (الثعالبي، ٢٠٠١م: ١١٨)

ومن دلالاته الحزن والتشاؤم، فقد كان العرب يتشاءمون حتى من مجرد النطق بهذا اللون وأحد مشتقاته. (عمر، ١٩٩٧م: ٢٠١)

وكانت للعرب أيام وحروب، «فكانت عبارة يوم أسود كناية عن التشاؤم به وتوقع الشر.» (الثعالبي، ٢٠٠١م: ١٢٠)

ويتكرر اللون الأسود في شعر السماوى بمعان مختلفة ودلالات متنوعة، حسب السياق الذى يشتمل عليه، أبرزها لون الحزن والمآسى بالدرجة الأولى في تشكيل صور

الشاعر:

تَعَبْنَا يَا عِرَاقُ ... وَأَرْقَقْتُنَا
رحي الأيام ... أدمنا الحِدادا
أرى عشرا مَضِينَ وَلَا صَبَاحَ
يُزِيلُ بِنُورِ طَلَعَتِهِ السَّوَادَا (السماوى، ١٤١٩ق: صحيفة المدينة)
فلم يكن شاعرنا بعيدا عما يجرى على أرض الوطن الأم من حروب إلى حصار
أنضَبَ العروق وأجذب الحرث وأقفر أرض العراق.

وفي المقطع التالى يريد الكتابة بجزء أسود، وذلك لأن الشاعر يريد كتابة مأسى
العراق التى أحلت به واللون الأسود يدل بطبيعته على المصائب والماسى:
أريد لى عشرين يدا...

وورقة بمساحة غابة استوائية...

وقلما بحجم نخلة...

مع بئر من حبر أسود...

فأنا أريد أن أكتب قصيدتى الأخيرة

عن العراق (السماوى، ١٩٩٣م: ٢٦)

وقد يكون الأسود لون الخوف من المجهول:

وقال لى

حذارٍ أن تقربَ من تفاحة اللذاذة السوداء

أو تجرحَ جفنَ وردة

فـ“آدم” ما زال حتى اليوم

يبكى وليس من مقيبل (السماوى، ٢٠١٠م: ٢١٥)

وفي ما يلى الأسود لون السرية والغموض:

أعرنى مصباحك

فالليل

أكثر سوادا من عباءة أمى... (السماوى، ٢٠١٠م: ١٤٣)

وأحيانيا يدلّ عل العار والخبائة عندما يتصل بالساسة العراقيين في المنطقة الخضراء:

فكيف إذن تُسمّى ”المنطقة الخضراء“

تلک الطعنة السوداء

في جسد الوطن الأبيض؟ (المصدر نفسه: ٩٠)

وأیضا يقول الشاعر في ساسة ”البيت الأبيض“:

أوشك أن أومن

أن الله

يُحبُّ العبدَ

على قدر كراهته

لآلهة ”البيت الأسود“ في واشنطن... (المصدر السابق: ١٢٣)

وفي هذا السياق يقول الشاعر عن مصير الخونة:

ستتدلىّ حتما:

الزهورُ من الشُرُفات...

العناقيدُ من الأغصان

الحقائب المدرسيةُ من ظهور الأطفال...

وخونة الوطن من الحبال...

الحبال المتدلّية

من سقف الصفحات السوداء

في كتاب التاريخ! (المصدر السابق: ٨٨)

وقد يكون الأسود لونا لا دلالة له (لون طبيعي):

في أسواق ”أديليد“

وجَدَ أصدقاءى الطيبون

كلّ مستلزمات مجلس العزاء:

قماش أسود..

آيات قرآنية للجدران.. (المصدر السابق: ٤٤)

وفي مثل الأسود حضورا ودلالة، سواد الليل والسّخام. يقول الشاعر في رثاء الطيبة أمه:

كيف أغفو؟

سوادُ الليلِ

يذكرني بعباءتها.. (المصدر السابق: ١٤٧)

وأيضاً يقول:

و سوادِ ليلِ المقلتينِ

و هدهبا وبياضِ جيدِ (السماوى، ٢٠٠٦م: ١١٠)

ويستخدم "السخام" بدل اللون الأسود كما في المقتبس التالي:

قال: فاخلعه من القلب

كما تخلع ثوبا

كان كالآس بياضا

ثمّ أضحى خَلِقَ الرّدى

موشى بالسّخام (السماوى، ٢٠١٠م: ١٤٤)

يكون الأسود لونا محببا للنفس حيناً وبغيضا أحيانا أخرى، وذلك حسب موطنه وسياقه الذى يقع فيه؛ فى المقطع التالى يكون للون الأسود دلالة إيجابية:

عباءتها الشديدة السواد

وحدها اللاتقة

علما لبلادى. (السماوى، ٢٠١٠م: ٦٧)

يقترح السماوى عباءة أمه الشديدة السواد علما للبلاد، وكأنّ السماوى يريد القول: إن ظلام الديكتاتورية والاحتلال قد جعلت نهارات العراق أكثر سوادا من عباءة أمى.

وفي المقطع التالى يقول الشاعر:

كيف أغفو؟

سواد الليلِ

يذكرني بعباءتها

وبياض النهار

يذكرني

بالكفن (المصدر السابق: ٤٧)

وفي مقطع آخر يقول:

ثمة سواد

أكثر بياضا من مرايا الصباح ...

الحجر الأسود

وشاماتك مثلا ... (الساوي، ٢٠٠٨م: ٤٧)

السواد، كما هو معروف بأنه لون الحداد والموت، فقد يدل علي الجمال والظهر والقدسية كالحجر الأسود وشامات المحبوبة، إذ يدل الحجر الأسود علي الكعبة الزهراء وشامات الحبيبة علي جمالها؛ هكذا يعمد يحي السماوي إلى خلق لغة جدلية مثيرة في قصائده، من خلال اعتماده علي عنصر المفاجأة والدهشة في طريقة تشكيل الجملة من جهة، وطريقة قلب المداليل وعكسها من جهة ثانية، ليؤكد مهارته الفنية، وقدرته علي الخوض في أشكال الكتابة الإبداعية كلها. (شترح، ٢٠١١م: موقع المثقف)

اللون الأحمر

يعد اللون الأحمر من أوائل الألوان التي عرفها الإنسان في الطبيعة، «فهى من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس واشتعال النار والحرارة الشديدة، وهو من أطول الموجات الضوئية»، (عمر، ١٩٩٧م: ٢٠١) وهو لون البهجة والحزن، وهو لون العنف ولون المرح، والحزن ومن أكثر سمات هذا اللون ارتباطه بالدم، فهو لون مخيف نفسيا ومقدس دينيا.

ويرمز الأحمر في الديانات الغربية إلى التضحيات في سبيل المبدأ والدين، وهو رمز لجهنم في كثير من الديانات، ويرمز اللون الأحمر عند الهندوس إلى الحياة والبهجة، وله علاقة بالدم عند ولادة الطفل، وتدفق الدماء، وبعض القبائل تلتطخ المولود بالدم حتى يكون له فرصة في العيش مدة طويلة. (القرعان، ١٩٨٤م: ١٢٨-١٢٤) كذلك اللون الأحمر لون القوة والحياة والحركة، وأما عاطفيا فيعتبر اللون الأحمر لون الحب الملتهب

والتفاؤل والقوة والشباب. أكثر الشعراء القدماء من استخدام هذا اللون نتيجة وعيهم الجمالى والمعرفى لدوره فى أصل الوجود والواقع، لذلك تنوعت ألفاظه، وكثرت لتعبر عن ماهيته وقيمه ومدى نقائه ودرجة تشعبه.

اللون الأحمر قد يردُ صريحاً أو ضمناً فى الشعر. وعندما يكون ضمناً يُشار له بعدة أشياء من أبرزها: الدم والنار. والملاحظ أن اللون الأحمر فى شعر السماوى "دما ونارا..." غالباً ما يحمل الدلالة الإيجابية! وهذا ليس بمستغرب على شاعر تائر يرفض الظلم والاستبداد.

يمثل اللون الأحمر رمزا لتجربته الحزبية فى التعبير عن الإنسان المقهور والصراع اليومى من أجل حياة كريمة. وقد استخدم اللون الأحمر بدلالاته الحقيقية التى ترمز إلى شعار الحزب الشيوعى. (الصمادى، ٢٠٠١م: ١٩٨)

فقد ورد اللون الأحمر فى دواوين السماوى بكثافة كلون أساسى، تتعدد دلالاته من استخدام لآخر، وكثافة تكراره جعله ضمن مفهوم الموتيف.

الأحمر لون جنسى هجومى، فقد يقف هذا اللون جنسياً فى الموقع الأول، ونجده فى قصائده يتحدى المنظور الاجتماعى، ويبوح بجرأة عن رغبة بدائية، ويثير كل دلالات النشاط الجنسى وكل أنواع الشهوة؛ وتدرجاً من الشكل الحسى الصارخ إلى الرغبة الكامنة الهادئة:

وصَحَبْتَهَا فى رحلتين...

وحيماً أفلسْتُ:

بعثُ الخاتمَ الذهبىَّ والسَّلسالَ...

عشنا ليلة حمراء

فى نُزُل

يُطلُّ على مضيقِ "الدردنيل" (السماوى، ٢٠١٠م: ١٩١-١٩٣)

وفى المقطع التالى يقول:

شفتاى -لا البساط الأحمر-

فرشتها...

لمجلاة شفتيكِ (الساوى، ٢٠١١م: موقع المثقف)
ويأتى الأحمر رمز الحب وامتلاء الحياة بالعاطفة المتوثبة:
تسألنى: ما اسمُ التى تغيظنا
بثغرها الضوئى كالياقوتة الحمراء؟
وشرشف الوسادة الزرقاء...

الملاءة الناعمة البيضاء (الساوى، ٢٠١٠م: ١٥٣-١٥٤)
وقد يكون الأحمر لون الحقد والنار:
لسنا "هنودا حمرا"

فلماذا يريدون إبادتنا؟ (الساوى، ٢٠٠٨م: ١٠١)
ويأتى هذا اللون ليدلّ على النضال والشهادة:
أمس رأيتُ الجثث الملقاة فى الشوارع الخلقية
لكنما الثقبُ فى ظهورها
تنبّت كالزنايق الحمراء (الساوى، ١٩٩٧م: ٢٦)

اللون الأصفر

يعتبر اللون الأصفر من أشد الألوان فرحا؛ لأنه منير للغاية ومبهج. هذا اللون يمثل قمة التوهج والإشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية، لأنه لون الشمس مصدر الضوء وواهب الحرارة والحياة والنشاط والسرور. واستخدمه المصريون القدماء رمزا لآلهة الشمس، وللوقاية من المرض.

للون الأصفر دلالة أخرى تناقض الأولى، وهى دلالته على الحزن والهم والذبول والكسل والموت والفناء، ربما الدلالة هذه ترتبط بالحريف وموت الطبيعة والصحاري الجافة وصفرة وجوه المرضى.

من المعروف أنّ اللون الأصفر ظلّ يحمل الدلالة السلبية، فهو «لون المرض والانتعاب». ولقد يرتبط اللون الأصفر بشعر الحزن والتبرّم من الحياة والتحفُّ نحو عالم أظهر»، (كرم، ١٩٤٩م: ٩٤) فحينما نأتى لعالم النبات يكون اللون الأصفر هو المعاكس

للون الأخضر؛ وبالتالي فإنه يتحمّل الدلالة العكسيّة له من جذب ومحول وشحوب، حتى أنّ الفلاح يتشاءم منه تماما مثلما يتفاءل باللون الأخضر... .

هذا اللون مختلف في دلالاته بحسب السياق. فمنه ما يعنى الذبول والجفاف والمرض، ومنه القاتم ما دل على الماء الآسن، ومنه الفاقع الذى يسر الناظرين كما فى الآية الكريمة ٦٩ من سورة البقرة.

ولعلّ أبرز دلالات هذا اللون فى شعر السماوى، الذبول والموت والفناء، كما فى المقبوس التالى:

مثلما ينفض البدوىّ عباءته بعد العاصفة...

وكما تنفضُ الریحُ الأوراقَ الصفراءَ من الشجرة...

سينفضُ التاريخُ من صفحاته البيضاء

الساسة الذين ملأوا:

بطوننا بالقررة...

وآذاننا بالحُطْب...

وأيامنا بالوعود... (السماوى، ٢٠٠٨م: ١٠٠)

فـ“الأوراق الصفراء” توحى بالذبول والحواء لإرتباطها بالخریف وموت الطبيعة، كما أن “الريح الصفراء” فى المقطع التالى تدلّ على الفتن والمحن والظروف القاسية: سقط الديكتاتور...

فمتى تسقط الديكتاتورية؟

كم “ثمود” يجب أن تندثر

وكم “عاد” يتعيّن دفنها

ليكفّ ملوك الطوائف

عن إثارة غبار الفتنة؟

الريحُ الصفراء

لم تبق من الرمال

ما يكفى النعامة لدفن رأسها (السماوى، ٢٠١٠م: ٧٩-٨٠)

ومن الدلالات الإيجابية لهذا اللون عند الشاعر قوله:

كانت أمي

تلاً الإناء الفخار قرب نخلة البيت

تترقمحا وذرة صفراء... (المصدر السابق: ٥٤)

فاللون الأصفر من الألوان المتقلبة، وليست له إيماءات ثابتة، يستمد دلالته أحيانا من لون الذهب، وأخرى من لون النحاس، وأحيانا من ضوء الشمس عند المغيب، وتارة من بعض الثمار كالليمون والتفاح، والطيب مثل الزعفران، وأحيانا يستمدها من النباتات الذابلة، حين تجف فيميل لونها إلى الاصفرار. (مختار، ١٩٩٧م: ٣٦)

اللون الأزرق

يعتبر اللون الأزرق لون الوقار والسكينة والهدوء والصدقة والحكمة والتفكير، واللون الذي يشجع علي التخيل الهادئ والتأمل الباطني، ويخفف من حدة ثورة الغضب، ويخفف من ضغط الدم ويهدئ التنفس.

كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرقاء، فاتهموا أصحابها بالكذب واللؤم والشر. (الخطاب، ٢٠٠٣م: ٨٥) وكان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي وكل أعجمي حتى قيل عن شديد العداوة «إنه عدو أزرق». (الأندلسي، ١٩٩٥م: ٥٦) ويقال في العدو «هو أزرق العين، وإن لم تكن زرقاء». فقد عرف العرب اللون الأزرق في عيون الجوارى والقيان منذ عهد الجاهلية عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد فارس وغيرها. كما عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم؛ ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلا نادرا.

للأزرق دلالات واسعة ومختلفة، وربما يعود ذلك لأسباب منها تفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم، فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود؛ لذا فهو يثير النفور والحقد والكراهية، وقد ارتبط بالغول والجن والقوى السلبية في الأرض، بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء والسماء، فهو مناسب للهدوء والبرودة، وبقيت تدرجات هذا اللون بين هذين الحدين. (حمدان، ٢٠٠٨م: ٥١)

وللون الأزرق مكانة خاصة في العبرية وأهلها، فهو لون الرب يهود، بهذا أصبح هذا اللون مقدسا عند اليهود، وأما لدى الصينيين فاللون الأزرق رمز للموت. (عمر، ١٩٩٧م: ١٦٤) مع أن تدرجات الألوان تعطى دلالات خاصة، فالأزرق القاتم يدل على الخمول والكسل والهدوء والراحة، كذلك في التراث فهو مرتبط بالطاعة والولاء والتأمل والتفكير، وأما الفاتح فهو يعكس الثقة والبراءة والشباب، ويوحى بالبحر الهادئ والمزاج المعتدل كما في المقطع التالى:

حين يكون الحبُّ إناء خزيًا

أو دورق...

حين يكون حديثنا تحت ضبابِ الخوفِ وهما ليس يُصدّق:

يسقط عندى العاشق والمعشوقُ

ويخلعُ بحر الحبِّ الثوبَ الأزرقُ (السماوى، ١٤١٥ق: ١٥٥)

لم يرد اللون الأزرق في شعر السماوى إلا لدلالات إيجابية، توحى بالوقار والسكينة

والهدوء والصفاء، كما جاء في البيت التالى:

خُذى دمي ولترسمى بعضه

وردا على قميصكِ الأزرقِ (المصدر السابق: ١٥٩)

وأيضاً يقول:

تسألنى: ما اسمُ التى تغيظنا

بشعرها الضوئى كالياقوتة الحمراء؟

وشرشف الوسادة الزرقاء...

الملاءة الناعمة البيضاء (السماوى، ٢٠١٠م: ١٥٣-١٥٤)

ويقول الشاعر في رثاء والدته:

مرّة لسعت نحلة جيداً أمى...

ربما ظننت نقوش جيدها وروداً زرقاء

لتصنع من رحيقها عَسلاً... (السماوى، ٢٠١٠م: ٦١)

النتيجة

لقد وجد الشاعر العراقي يحيى السماوي طاقات غنية في اللون لا يمكن إغفالها. فاتخذ منه أداة للافصاح عن مشاعره، أو تجسيد أفكاره. وأهم النتائج التي توصل إليها البحث هو دور الألوان في المواقف المختلفة ودلالاتها حسب السياق التي ترد فيه، فالأخضر لون الحياة والحركة والسرور؛ والأبيض رمز للصفاء، ونقاء السريرة والسلام؛ والأسود يدل على العدمية والفناء والحزن، وأحيانا إلى الحكمة والرزنة، وقد يدل علي الجمال والطهر والقدسية كالحجر الأسود وشامات المحبوبة؛ والأحمر من أكثر سماته ارتباطه بالدم. فهو لون مخيف نفسيا ومقدس دينيا، وأما عاطفيا فيعتبر لون الحب الملتهب والتفاؤل والقوة والشباب؛ والأصفر لون المرض والانقباض والجفاف؛ والأزرق لون الوقار والسكينة والهدوء والصدقة والحكمة والتفكير.

ومّا توصلنا له في هذه الدراسة أن اللون من أهم ما يميز عناصر الصورة عند السماوي، حيث لعبت المفردات اللونية العديد من الوظائف داخل صورته الشعرية، واستطاعت أن تضيف لها قيمة عالية ومذاقا خاصا.

المصادر والمراجع

- الأندلسي، ابن عبد ربه. (١٩٩٥م). العقد الفريد. ج ٣. بيروت: دار الفكر.
- بدوي، محمد جاهين. (٢٠١٠م). العشق والاعتراب في شعر يحيى السماوي. ط ١. دمشق: دار البناييع.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك أبو محمد. (٢٠٠١م). فقه اللغة: تحقيق جمال طلبه. بيروت: دار الكتب العلمية.
- جواد، فتن عبد الجبار. (٢٠٠٩م). اللون لعبة سيميائية؛ بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري. عمان: دار مجد لاوي للنشر والتوزيع.
- الخطاب، محمد جميل. (٢٠٠٣م). العيون في الشعر العربي. ط ٣. دمشق: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع.
- حمدان، أحمد عبدالله محمد. (٢٠٠٨م). دلالات الألوان في شعر نزار قباني. رسالة جامعية.
- السماوي، يحيى. (٢٠٠٣م). الأفق نافذتي. إديلايد، استراليا.

- السماوى، يحيى. (٢٠٠٨م). البكاء على كتف الوطن. دمشق. التكوين.
- السماوى، يحيى. (٢٠١٠م). بعيدا عنى .. قريبا منك. ط١. دمشق: دار الينابيع.
- السماوى، يحيى. (١٩٩٣م). جرح باتساع الوطن. جدة: الناشر عبد المقصود محمد سعيد خوجة.
- السماوى، يحيى. (٢٠١٠م). شاهدة قبر من رخام الكلمات. ط٢. دمشق: دار التكوين.
- السماوى، يحيى. (١٤١٥ق). عيناك لى وطن ومنفى. ط١. جدة: منشورات دار الظاهري.
- السماوى، يحيى. (٢٠٠٦م). قليلك.. لا كثيرهّن. جدة: منتدى الإثنيينية.
- السماوى، يحيى. (٢٠١٠م). لماذا تأخرت دهرا. دمشق: دار الينابيع.
- السماوى، يحيى. (٢٠٠٨م). مسبحة من خرز الكلمات. دمشق: دار التكوين.
- السماوى، يحيى. (٢٠٠٥م). نقوش علي جذع نخلة. سيدنى: منشورات مجلة كلمات.
- السماوى، يحيى. (١٩٩٧م). هذه خيمتى... فأين الوطن؟ ط١. مليون: مطبوعات Gregory.M.R
- السماوى، يحيى. (١٤١٩ق). يا ملح الهوي يا صبر. جدة: صحيفة المدينة.
- الصمادى، امتنان عثمان. (٢٠٠١م). شعر سعدى يوسف. ط١. بيروت: المؤسسة العربية.
- ظاهر، فارس مبرى. (١٩٧٩م). الضوء واللون. ط١. بيروت: دار القلم.
- عبو، فرج. (١٩٨٢م). علم عناصر اللون. ج٢. ميلانو: دار دكفن.
- عبيد، محمد صابر. (٢٠٠٥م). جماليات القصيدة العربية الحديثة. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- عمر، أحمد مختار. (١٩٩٧م). اللغة واللون. ط٢. القاهرة: علام الكتب.
- العمرى، زينب عبدالعزيز. (١٩٨٩م). اللون في الشعر العربي القديم. القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية.
- القرعان، فايز عارف سليمان. (١٩٨٤م). الوشم والوشى في الشعر الجاهلى. رسالة جامعية. جامعة اليرموك.
- كرم، أنطوان غطاس. (١٩٤٩م). الرمزية والأدب العربي الحديث. بيروت: دار الكشاف.
- مختار، أحمد. (١٩٩٧م). الدلالات النفسية والاجتماعية. ط٢. القاهرة: عالم الكتب.
- نشوان، حسين. (٢٠٠٤م). «المعجم اللوني في شعر عز الدين المناصرة». الأردن. مجلة أفكار، تصدر عن وزارة الثقافة، عدد ١٨٩. تموز.
- هام، محمد يوسف. (١٩٣٠م). اللون. ط١. القاهرة: مطبعة الاعتماد.
- المواقع الإلكترونية
- السماوى، يحيى. (٢٠١١م). «عمدينى بنضك». موقع المثقف. العدد: ١٦٩١. على الرابط التالى:
- http://www.almothaqaf.com/index.php/templates/rhuk_milkyway/images/stories/index.php?option=com_content&view=article&id=45308:2011-03-09-12-16-33&catid=35:2009-05-21-01-46-04&Itemid=0

شرتح، عصام. (٢٠١١م). «المرتكزات الجماليّة في قصائد يحيى السماوى الثريّة». صحيفة المثقف الإلكترونية، العدد: ١٨٥١. الرابط التالي:

http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=53321:2011-08-17-12-42-50&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=53